« رواية مسلسلة » بقلم : ثروت أباظه

- ٢٧ -

أنهى محمد دراسته فى كلية الطب وعين فى قصر العينى وانقطعت صلته نهائيا بعزيزة دون أن يكون له أولها يد فى هذه القطيعة فقد تدخل بينهما هتلر من ألمانيا وتشرشل من انجلترا . فقطعا الصلة بينهما . توافد الجنود الانجليز وأصبحت عزيزة شخصية مرموقة فى دنيا الليل وتفرغت لهؤلاء الزبائن تجيب طلباتهم وتخلت عن أصدقائها القدامى مرغمة على ذلك ارغاما .

وعاد محمد الى نفسه وحيدا .. رفيقته الجديدة سماعة يعلقها على رقبته فرحا بها يوما وأسبوعا وشهرا ثم أحس بها طوقا حول عنقه يحيط به يوشك أن يخنقه . وعاد ضائعا ، فرح بنفسه وهو يمر بالمرضى كاله صغير يشخص المرض ويصف الدواء ، يوما وأسبوعا وشهرا ثم اكتملت الصورة فى ذهنه .. انه بهيم يدور فى ساقية والسماعة حول عنقه هى النير على رقبة البهيم . نعم هو بهيم . بهيم منذ أدرك الحياة .. سحبه أبوه من أنفه حتى تخرج من كلية الطب واليوم يسحبه المرض والمرضى ، مسكين بسماعته يوجهونه بها انى يشاؤون .

أريد أنا أن أفعل شيئا .. أريد أن أفعل شيئا ، وكأنما وجد ضالته فى زوجته فتذكر فجأة انها مازالت زوجته .. لماذا ؟

ولم يكلفه الامر كثيرا . ورقة الزواج فى يده فما هى الا جلسة عند المأذون الذى تكفل باحضار الشهود حتى كانت زوجته طالقا . ووضع ورقة الطلاق فى خطاب الى أبيه وبات ليلته غير متزوج . فكر لحظة فى ابنه احمد وسرعان ما همست له نفسه : «البركة فى الحاجة» .

وانقضى الزواج .

وأحس انه صنع شيئا .. ولكنه ما لبث أن عاد الى السماعة والمرض والمرضى ، وما لبث أن عاد ضائعا .

سمع حسين بطلاق أخيه ، فقد كانت أنباء البلدة تأتيه بانتظام من صديقه جدى وعاود حسين الأمل القديم أن يتزوج هنيه .

لماذا ؟ لاأدرى ؟ كيف هى الآن لا أدرى ؟

أمل قديم طالما كنت أهفو الى تحقيقه ؟ كان الزواج بها مكانة اتطلع اليها ، وكنت أتطلع أيضا الى أن اصبح شيخا ذا عمامة وقور ،وأنا اليوم أحاول أن أنسى العمامة ماوسعنى الجهد ، وكنت أرجو أن يسألنى الناس الفتوى ، فاين أنا اليوم من الفتوى ، وكنت أرجو أن تأتى هنيه هذه بالذات فتقبل طرف الجبة وتسألنى فى شئون دينها فأجيب ، فاين أنا الآن من هذا جميعه ، ولكنى أريد أن أتزوجها ٠

قد يقبل أبوها ولكن ماذا يقول الحاج والى ؟

وطلب حسين أجازة من المدرسة وقصد الى قريته التى فارقها منذ سنوات بعيدة ونزل اليها ٠٠ غريبا نزل ٠٠ لم يعرفه أحد ولم يعرف هو أحدا ، الفلاحون وجوههم ليست غريبة عنه وهى غريبة ، يعرف السمات ولا يعرف الأسماء ، ويعرف الرائحة التى تهب عليه مختلطة بأنفاس القرية فتعود الى ذهنه ذكريات يدفعها عن نفسه باذلا غاية الجهد ألا تعود هذه الذكريات ٠٠ لا ، لايريد ، لايريد الا هنيـــه ثم يعود الى القاهرة هناك حيث يضيع فى الزحام الكبير ، ويكتب شعرا ويصادق من يجد عندهم نفعا حتى ينتهى هذا النفع فتنتهى الصداقة ٠

مشى حسين فى القرية يرد عن نفسه الذكريات التى تتواكب عليه من أشجارها من تلالها ، من طرقها ، من بيوتها ، بل من سمائها ، ومن انفـــاسها ، ومن رائحة أعشابها وزرعها ٠

لم يقصد الى بيت الحاج والى ، لا ولا الى بيت جده ، وانما قصد الى بيت أبى هنيه ٠٠ فما كان يريد الا هنيه ٠

قال لأبيها :

ـ أتذكرنى يا عم عبد الحميد ؟

وتفرس فيه عبد الحميد لحظات قليلة ثم قال :

ـ الشيخ حسين ٠٠ كيف أنت يا شيخ حسين ؟

ـ الله يطيل عمرك ٠٠ عرفتنى بعد هذه السنين الطويلة وبعد أن غيرت العمامة بالطربوش ٠

ـ كيف أنساك يا شيخ حسين وانت من بلدى ٠٠ كيف حالك ؟

ـ الحمد لله ٠

ـ نسمع أغانيك فى الراديو ٠ ٠ كلامك حلو والله ياشيخ حسين ٠

ـ الله يكرمك يا عم عبد الحميد ٠

وصاح عبد الحميد من مكانه :

ـ القهوة يا هنيه ٠

وقال حسين فى تظاهر باللعثمة :

ـ آسفت والله لما حصل من أخى ٠

ـ كل شىء قسمة ونصيب ياسى الشيخ ٠

ـ ياترى ياعم عبد الحميد لو أردت أن أصلح ٠

ـ حد الله بيننا وبين محمد ياشيخ حسين ٠٠ هو الآن دكتور ونفسه كبرت علينا ٠٠ يا ابنى أرأيت عمرك زوجا لايقيم مع زوجته ثم لايكتفى بهذا بل يطلقها أيضا ولا يفكر فى ابنه الصغير ٠٠ لا ٠٠ لا ياشيخ حسين ٠٠ حد الله بيننا وبين محمد ٠

ـ انت لم تفهم قصدى يا عم عبد الحميد ٠

ـ خيرا ٠

أنا أريد أن أخطب هنيه لنفسى ٠٠ انا مدرس ومرتبى ٠٠٠

انتظر يا ابنى ٠٠ أنت تريد أن تتزوج طليقة أخيك ؟ ٠

ـ ما أحله الله لايحرمه العبد ياعم عبد الحميد ٠

وسكت عبد الحميد مطرقا وامعن التفكير ثم قال :

ـ هل سألت الحاج والى يا شيخ حسين ؟

وارتج على حسين فما كان ينتظر هذا السؤال ، ثم قال متلعثما :

ـ أردت أن أسالك أولا ٠

ـ لا ياابنى ٠ فهنيه ما تزال أم ابنهم ، والحـاج والى تاثر مما فعله ابنه ، تأثرا كبيرا ، وهو يبر البنية حتى اليوم ويأتى لزيارتها دائما ويسأل عنها ، وانت على كل حال يا شيخ حسين ابنه ، لاينكر المعروف الا ابن الحرام ، انت ابنه ياشيخ حسين

وقال حسين مسرعا :

ـ طبعا ، طبعا يا عم عبد الحميد وهل أستطيع الانكار ٠

ـ اسأله أولا ياابنى ٠٠ اسأله أولا ٠

ودخلت هنيه حاملة القهوة ٠٠ ونظر اليها حسين ٠٠ انها ليست هى ٠٠ لا ، ولا هى التى تصور انه سيراها ٠٠ ولكنه مع ذلك مصمم على الزواج بها ٠٠ لماذا ٠٠

لا يدرى لماذا ؟

* * *

حين دخل حسين الى البيت الذى تربى فيه ، استقبله البيت ، رائحة الفرن التى لم تتغير ، وبرائحة الذكريات التى ما زالت تطالعه منذ نزل الى القرية ٠ الا أن رائحتها هنا فى هذا البيت كانت أشد عنفا ، كأنما هذا البيت هو المصدر الذى توزعت عنـه الذكريات الى القرية جميعا ٠

أحس حسين الخوف يسيطر على قلبه لايدرى لماذا ، ومد يده الى عينه اليسرى يمسح الدمعة المنحدرة ٠ وتوقف فى صحن الدار يقلب النظر يحاول أن يستعيد بعض شجاعته ولكن الخوف كان يهاجمه فى قسوة ٠٠ خوف لايدرى مأتاه ولا أسبابه وانما هو رعشة فى القلب ، وبرودة تتمشى فى أوصاله ، وتننحح ، وتردد صدى نحنحته فى البيت جميعا ثم عاد يمسح دمعة لم تكن موجودة وراح يدير عينيه مرة أخرى حواليه ثم خطا خطواته الأولى وصعد السلالم ، ثقيل الخطوات حتى اذا بلغ منتهاها وجد الحاج والى جالسا على أريكته لم يغيرها ولم يغير جلسته عليهـا ، كأنه كان جالسـا ينتظره عائدا من الكتاب ٠ أو كأنه ظل جالسا هذه السنوات الطوال لم يتحرك من مكانه ٠٠

وغير بعيد منه على الارض جلست الحاجة بمبه تلاعب طفلا أدرك من فوره انه احمد بن محمد وان خيل اليه للحظة عابرة انه محمد نفسه ، ونظر الحاج والى ونظرت الحاجة بمبه ودون أن يشعرا ارتسمت ابتسامة مرحبة على شفاههما وهمهما بالفاظ لم يكن حسين يحتاج الى كثير ذكاء ليدرك انه ترحيب يجمع الى الدهشة الصدق والحب وقبل حسين يد الحاج والى ثم ركع على الأرض يقبل يد الحاجة وسحبت يدهـا لتربت ظهره فى حنان ·· وراح الكلام يسيل من شفتيها ·

ـ أوحشتنى ياحسين ·· اسمع كلامك فى الراديو وأقول لنفسى والله ربيت ونفعت واشتاق اليك ·

وأسعفت الدمعة من العين اليسرى حسين فلم يمسحها وأحس انه يحتاجها فقد كانت عيناه عاصيتين عن دمعة تأثر ·

ولم يزد الحاج والى عن قوله :

ـ كيف أنت يا حسين ؟

ـ الحمد لله يابا الحاج ·

ثم التفت الحاج الى زوجته :

ـ جهزى العشا لحسين ياحاجه ·

ـ من عينى ·

وقامت وأمسكت احمد من يده وخرجا ولم يكن يخفى على الحاج أن حسين يريد أمرا ولكنه آثر ألا يسأله ، وانما راح يسأله عن عامة شأنه فينقطع الحديث باجابات تقليدية ·

ـ كيف حال المدرسة ؟

ـ الحمد لله ·

ويهوم الصمت ·

ـأما تزال فى بيتك؟

ـ لا ، نقلت الى شقة ·

ـ ويهوم الصمت ·

ـ أغانيك حلوة يا حسين ·

ـ الله يبقيك يابا الحاج ·

ـ اشتريت راديو خصيصا لأسمع أغانيك ·

ـ الله يبقيك يابا الحاج ·

ـ ويهوم الصمت ٠

ويفكر الحاج فيما يمكن أن يكون سبب مجيء حسين ويفكر حسين فيما يمكن أن يكون فاتحة الحديث الذى يريد أن يسوقه ، ويرتفع صراخ احمد لحظة ، ثم يظلهما الصمت مرة أخرى فتعلو أصوات الضفادع والصراصير والكلاب ويتنحنح محمد ثم يقول فى صوت متسلخ ٠٠

ـ أبا الحاج ٠

ـ نعم يا ابنى ٠

ويرفع حسين يده الى عينه الدامعة ٠

ـ أريد أن أعرض عليك أمرا ؟

ـ قل ياحسين ٠

ـ أريد أن أتزوج ٠

ـ على بركة الله يا ابنى ٠ ومن العروس

وفى سرعة يقول حسين :

ـ هنيه ٠

ويعتدل الحاج فى جلسته ويلقى الى حسين نظرة داهشة ـ

ـ من ؟

ـ هنيه ٠

ـ امرأة أخيك ؟

ـ طليقته ٠

ـ لماذا ؟

ـ أريد أن أصلح ما فعله أخى ٠

ـ هل تحبها ؟

وصمت حسين لحظة وتنحنح وقال :

ـ ماذا ؟

ـ هل تحبها ؟

ـ نعم ٠

ـ هل تحبها حقيقة يا حسين ؟

ـ نعم .

ـ هل تحب أحدا ياحسين .. هل تحب أحدا على الاطلاق .

ودهش حسين من السؤال فاستغلق عليه الحديث هنيهـــة ثم قال وكأنه لم يسمع :

ـ نعم ؟

ـ أقول هل تحب أحدا على الاطلاق .. هل تعرف الحب ..

نعم أنت شاعر .. تقول الشعر فى الحب والغرام والهيام ولكن هل تعرف الحب يا حسين ؟

ـ ياابا الحاج أنا مقصر ولكن معروفك ومعروف الحاجة لا ينسى .

ـ أنا يا ابنى لاأسأل عن المعروف انما أسأل عن الحب هل تعرف الحب يا حسين ؟

وتنبه حسين الى نفسه ، وكأنما جعله السؤال انه انسان ناقص .. ينقصـــه الحب ، وأطرق ثم قال :

ـ اذا أمرت ألا أتزوج هنيه فأنا طوع أمرك .

وصمت الحاج وواصل حسين حديثه :

ـ انها شابة وستتزوج وانا أولى من الغريب .

وأطرق الحاج بعض الوقت ثم قال فى لهجة من يريد أن ينهى موضوعا :

ـ اعمل ما تريد يابنى .. اعمل ما تريد .

ـ كتر خيرك يابا الحاج .

ثم أطرق دون أن يحس فرحا ولا حزنا ومسح الدمعة عن عينه .

وهوم الصمت وارتفع صوت الضفادع والصراصير والكلاب .

- ٢٨ -

أنهى محمد فترة التمرين بقصر العينى وعين طبيبا بالمستشفى الاميرى بالزقازيق

واستقبل أمر تعيينه فى غير رضى ولا فرح فما كان يريد أن يكون قريبا الى يد أبيه التى خطت له مستقبله وما كان يريد أن يكون فى البلدة التى شهدته طفلا وفتى انه يريد أن يبتعد ، يبتعد ليشق لنفسه ما بقى من طريق ، يريد أن يختار أصدقاءه ، ويختار حياته كما يشتهى ، أى موظف أحمق فى وزارة الصـــحة اختار له هذا المكان .. لا شك انه موظف يبحث عن أيسر الأمور سأل من أين محمد فقيل من الشرقية فقال يذهب الى الزقازيق ، وماذا يستطيع محمد أن يقول بعد هذا .. فليرم به الى الزقازيق

وليسارع الضياع مرة أخرى ·· فان استطاع أن يتخلص منه فليرتمى فى شبكة أبيه والطريق الذى يريد أن يخطه له دائما ·

زاره أبوه واستقبله بكل ترحاب ، انه يحبه ، لكنه يريد أن يخط لنفسه طريق نفسه · لعله كان يختار الطب لو ترك له أن يختار ولكنه هو لم يختر فهو يحس أنه مسوق فى طريق لايملك فيه لنفسه مصيرا ، اما كان يكفى أباه أن ينجبه ويختار له اسما ويختار له التعليم منهجا ، أكان لابد أيضا لأبيه أن يختار له الطب ، ويختار له الزوجة ويختار له البيت الذى يعيش فيه · نعم انه طلق زوجته ولكنه مع ذلك يحس أن الخيوط التى تربط حياته خيوطا غريبة عليه ، ليس بينه وبينها آصرة من تعرف ، هى غريبة عن نفسه لا جذور لها فى أنحاء كيانه ، خيوط تمتد اليه من خارجه لا هى نبتت من داخله ، ولا نمت معه ، ولا واكبت حياته ، لا يستطيع أن يتذكر متى فكر فى كلية الطب ولا لماذا اختارها ولم يختر غيرها ، لا ولا يستطيع أن يقول فى نفسه انه قارن بين كلية الطب وغيرها من الكليات ، لقد وجد نفسه فيها كما وجد اسمه محمد وكما وجد زوجته هنيه ، طريق دفعته اليه يد أبيه فما استطاع عنه حولا ولا منصرفا ، واليوم يحل موظف الصحة الأحمق محل ابيه فيختار له الزقازيق لايستشيره ولا يحاول أن يتعرف ميله · القلق يساوره منذ جاء الى الزقازيق ·· الخوف ·· لماذا انه لايدرى أهو يخشى أن تلتقى به يد أبيه مرة أخرى ؟ أم هو يخشى أن يغلبه الضياع على أمره ؟ أم يخشى نفسه فقد طالما ساورته الخشية من نفسه ، قلق لايفارق نفسه فان خلا لنفسه بعد ساعات العمل فتكت به نيران القلق فهو يلجأ الى الاصدقاء من الزملاء وهم لايقيمون فى بيت أحد منهم وانما يقصدون الى النادى ، وهم هناك لايقصرون تسليتهم على الحديث وانما يلجأون من ملالتهم الى لعب البوكر ، لعبة سهلة التعليم سريعة الكسب سريعة الخسارة · ولم يستغرق محمد كثير وقت ليصبح من اللاعبين المداومين · وقد كان أجرأ لاعب على المائدة فما كان يخاف شيئا الا الخوف الذى يحس به وهو بعيد عن اللعب ، كان عندما يلعب ينسى كل شىء ولا يعاوده القلق الا وهو بعيد عن اللعب · وبعد فماذا كان يمكن أن يخيفه غير ذلك ، ان قصر المرتب أن يطلب من أبيه عونا ولن يرد أبوه له طلبا فهو من الناحية المالية آمن على نفسه ، ويستغرق فى اللعب · ويعرف أبوه انه اذا أراده يجده فى النادى ويعرف أيضا انه يقامر وتعود سحب الضباب تتكاثف أمام عينيه · · لا حول ولا قوة الا بالله · · أربى اثنين فيصبح الأول زانيا لا يحفل بالمعروف الذى قدمته له حتى ليتزوج طليقة ابنى وأخيه ويصبح الثانى مقامرا ويحتسب الله فى أولاده ويعاوده السؤال القديم : لماذا نصر على أن نأتى بالاولاد ، وتتجمد السحابة من الضباب أمام عينيه والسؤال فى ذهنه ويسعى اليه وهو على المصطبة أمام بيت جاره الحاج مهدى ·

ـ ياحاج أتستطيع أن تطلب لنا الدكتور محمد ؟

ـ نعم ياحاج مهدى ·· فيم تريده ؟

ـ زوجة ابنى عثمان متعسرة فى الولادة ·

ـ اطلبه من تليفون زين العابدين بك ·

ويقوم الحاج والى الى التليفون ويطلب ابنه وتخف كثافة الضباب أمام عينيه ويهتز السؤال فى ذهنه بعض الشىء ٠

- ٢٩ -

منذ قدمت آمال الى قرية الحميدية وهى ملقاة فى البيت تطالعها من أبيها نظرات حانقة حائرة عاتية ، ومن أمها صوت دائم التقريع لاتتلون نغمتـــه أبدا ٠ وهى بين نظرات أبيها وصوت أمها فى أتون من العذاب لاتجد ما تفعله الا أن تجلس وحيـــدة حتى تأتى الى أمها زائرات وتأمن الى أن أمها لن تستطيع أن تسىء اليها فى حضرتهن فهى تأخذ مكانها معهن وتستمع الى الحديث وتشارك فيه ٠ ولم يمض كثير وقت حتى أصبح لها هى زائرات فى مثل سنها وأصبحت حياتها هى أولئك الزائرات وأحاديثهن ولم تكن أحاديثهن الا عن أزواجهن ، والخوافى الخفية من أسرارهن تسعدن بأن تلقينها على مسامع آمال فما تجدى الأسرار والأحاديث أن تبدد وحدتها أو تؤنس وحشتها ٠

وكانت زائرات آمال ينقلن اليها فيما ينقلن أحاديث القرية وأحداثها وفى هذه الايام كثر الترديد لاسم الدكتور محمد ، فالقرية تتحدث عن مهارته فى الطب والولادة والقرية تسوق الأمثلة على مهارته حقيقية حينا ومختلقة أحيانا ، والأحاديث تتواكب وتبلغ مسامع آمال فيما يبلغها من أحاديث وتزمع فى نفسها أمرا ٠

فهى تصحو ذات صباح وتجد انها مريضة وتريد أن يراها الدكتور محمد الذى تلهج القرية بمهارته ويدفع حب الاستطلاع أمها أن تستدعى محمدا الذى حملته طفلا رضيعا لترى كيف أصبح بعد أن صار طبيبا ، ولا يرى الأب مانعا ، ويأتى الدكتور محمد ٠ ٠

ويدخل محمد الى الحجرة وتلتقى عيون افترقت منذ سنوات طويلة ٠٠ عيون كانت طفلة لاهية وأصبحت اليوم شابة مرنت على النظر والنقد ، كان محمد مشوقا الى هذا اللقاء هو أيضا ٠٠ كان يريد أن يرى هذه القطعة من طفولته كيف أصبحت حين مسها الشباب ٠

ودامت النظرة لحظات ٠ ٠وبدا أن كلا من الاثنين رضى عن صاحبه ، وابتسمت الأم ، وصحا محمد فجأة ليبدأ الكشف وحين أتمه التفت الى الأم فى أدب :

ـ أتسمحين حضرتك بملعقة لأرى اللوز ٠

ـ حاضر ٠

وخرجت الأم وقالت آمال فى صوت لايخلو من السخرية :

ـ ما للوز وللمغص يادكتور ٠

ـ أنا لاأرى بك شيئا ٠

ـ اذن ٠٠٠

ـ لا أدرى ٠ ٠لعلك كنت تريد أن تكشفى أنت على ٠

وضحكت وقالت :

ـ وانت ... الم تكن تريد ذلك ؟

ـ نريد أن نرى طفولتنا .

ـ وكيف وجدت طفولتك ؟

ـ هى بخير عندك ولكنى لا أظنها بخير عندى .

ـ لماذا .. أنت دكتور قد الدنيا .

وضحك ساخرا وهو يقول :

ـ يتهيأ لك .. أتصدقين كلام الفلاحين .

ـ لقد عرفت مرضى .

ـ لانه نفس مرضى .

وتدخل الأم بالملعقة ويلقى الدكتور نظرة أخيرة على الحنجرة ، ولا يلبث أن يقول فى لهجة جادة :

ـ برد بسيط ، سأكتب لها دواء وأمر غدا ان شاء الله .

وتعرف آمال انها وقعت من نفسه حيث تريد أن تقع ويخرج محمد .

ولا يمر كثير وقت حتى يذهب محمد الى أبيه .

ـ يابا أنا أريد أن أخطب .

ـ مين ؟

ـ آمال بنت زين العابدين بك .

ـ مين ؟

ـ ماذا يابا هل فى هذا بأس .

ـ يا ابنى طلعت فى العالى .

ـ أنا يابا طبيبا ولى اسمى ولى مركزى .

ـ أخاف أن يرفض .. انك تزوجت مرة ولك ولد .. وهم غيرنا يامحمد .

ـ لاتخف .

ويعود الضباب الى الحاج والى .. كان لابد لى أن ألاقى الرفض والهزء أيضا .. مالنا نحن ولزين العابدين بك .

ولا يسوف الحاج والى كثيرا بل ينتهز فرصة يخلو فيها الى زين العابدين بك

ويتقدم بمطلبه . ويدهش الحاج والى .. لقد رحب به الرجل .. رحب به ترحيبا أخافه أكثر مما أفرحه .. ولا يمضى كثير وقت حتى يتم الزواج ولكن الضباب لا يبارح الحاج والى كلما فكر فى شأن هذا الزواج .

- ٣٠ -

أتلك هى الحياة التى كنت أصبو اليها ، أهذا هو الفن الذى عشت عمرى أهفو أن أكون واحدا من أهله ، أعيش فى رحابه وأقضى عمرى فى ظل منه ، أهذا هو الشعر الذى كنت أريد أن أنظمه .. ماذا أصبحت ، كيف جنحت من الحياة الى هذا الجانب المظلم فيها ، وهذا الجانب القاتم الداكن .. من أنا ، خباز ، يجهز ما يطلب منه ، بلا فن ولا روح ، ولا نوازع ، أين هذه التهويمات التى كانت تتراقص فى داخلى تريد أن تصبح كلاما وتلح فاذا هى متفجرة كالينبوع الأصيل دون حفر أو بحث أو تنقيب ، ماذا أصبحت .. ياحسين نريد أغنية يكون معناها كذا وكيت ، ياحسين نريد قصيدة تقول فيها كذا وكيت . هم الذين يقولون وانا أتلقف أوامرهم لأجعل منها نظما لاأجد فيه شيئا من نفسى وانما هو نفوسهم وما يطلبون وهل أستطيع أن أقول لا .. وكيف أعيش ، منذ تزوجت هنيه وهى لاتترك عاما دون أن تقدم الى فما جديدا يريد أن يعيش ويعيش ، من أعصابى يعيش ، يقتات من دمى ومن كرامة فنى المهدرة ، لم يكن هذا ما أريد ، كنت أحب الشعر أقوله وأجد فيه نفسى ومشاعرى أنا .. ، لا مطالب المطربين والمطربات .. فأين منى هذا الشعر الآن .. أصبحت كآلة الكتابة . .أكتب ما يراد لى أن يكتب بفارق واحد انى أخرجه نظما أمقته .. أمقته .. أين هذا من الفن ، ولكن هل يدرى هؤلاء الاطفال فى صرختهم الجائعة بماذا يقتاتون ؟ بأشلاء فنى الذى ودعته بلا أمل فى اللقاء . . ومن أين لى اللقاء .. ماذا أصبحت .. مدرس وموظف للأغانى لدى المطربين والمطربات ، وتتسامع مصر بما أقول ولكن ما أبغض ما أقول الى نفسى ، هذا ليس أنا .. كلما امتدح أحد فى بعض مقطوعاتى أحسست كأنه يمتدح غريما لى أكرهه .وأعيش .. من جثة امالى أعيش ، من دماء أحلامى أعيش ، وهنيه وأولادها يأكلون .. لايدرون ماذا يأكلون .

وانهمرت دمعة على خد حسين وتحسسها بيده ثم نظر الى مائها على يده وأنعم النظر وكأنما يريد أن يعرف عن أى منبع انهمرت هذه الدمعة ، أهى الدمعة التى ألفها تنهمر دون أن يدعو اليها داع أم هى صادرة عن نفسه هذه التى يمزقها الألم وتأكلها النيران .

ودق جرس التليفون فى البيت ، فقد أرغمه عمله أن يكون فى بيته تليفون ، وأمسك السماعة :

ـ نعم .

وجاءه الصوت آمرا أكثر منه راجيا ، ولم يجد ما يقول الا : حاضر .

وسأله الصوت فأجاب :

ـ بعد أسبوع ٠

وجاءه الصوت مرة أخرى فأجابه :

ـ حاضر ٠٠ أقل من أسبوع ٠٠ نعم فهمت ما تريد ٠

نعم سيكون كما تريد ٠٠ نعم ٠٠ حاضر ٠٠ نعم ٠٠ حاضر ٠

ووضع السماعة وظل يردد : نعم ٠٠ حاضر ٠٠ نعم ٠٠ حاضر ٠

- ٣١ -

أقام محمد وعروسه بالزقازيق واستطاع أن يخلو لها فى أول حياتهما الزوجية بضعة أسابيع ، ولكن نداء القمار كان عاليا يطن فى أذنيه طنينا متصل الجرس حتى لم يستطع أن يغفله فعاد طريقه الى النادى ومائدة القمار وعادت آمال الى الوحدة ٠

الا أنها فى هذه المرة كانت فى مدينة فما أسرع ماارتبطت أواصر الصداقة بينها وبين جاراتها الساكنات بالدور الأعلى والأخريات المقيمات بالبيوت المقابلة أو الملاصقة، ولكن ما أقل ما تغنى هذه الصداقات فللزيارات أوقات تنتهى عندها وهى أشد ماتكون حاجة الى الصديقة فى الأوقات التى لاتصلح للزيارة ٠٠ هناك فى أعماق الليل حين لا تسمع الا الصمت ولا ترى الا الظلام ٠ ٠فى هذه الأوقات التى تمتد بغير نهاية تريد هى الصديقة ٠٠ تريد من ينسيها انها تزوجت لمجرد الزواج ٠٠ تريد من يجعلها لا تذكر انها تزوجت لانها برمت بالسجن فى القرية ٠٠ تريد زوجها الذى تزوجته عن غير حب ليقول لها انه يحبها ٠٠ أو ليقول لها أى شىء ولينتشلها من هذه الوحدة التى عانت منها الكثير هناك فى القرية لا يحيط بها الا غضب أبيها وتزمت أمها ٠

لم تكن الجارات اذن يعنين شيئا بالنسبة لها ، فقد كانت الفلاحات بالقرية يجئنها فى نفس المواعيد التى تتبادل فيها الزيارات مع جاراتها لم يزد عليها فى بيت زوجها الا أنها أصبحت تزور معه القاهرة من حين الى آخر ٠ وكانت تستطيع هنا أن تزور صديقتها ناهد التى تزوجت هى الاخرى وان كانت ما زالت تسير حياتها كما كانت تسيرها وهى بعد فتاة فى المدرسة ٠ كانت هذه الزيارات الى القاهرة هى المتعة الوحيدة التى أحست آمال بها ٠ولم تكن قد أعدت نفسها لهذا الذى تلاقيه ، فحين لقيته امتلأت نفسها تمردا وحنقا ، حتى محمد بن الحاج والى يتركها ليلعب القمار ، وينفرد بها الليل لماذا تزوجته اذن ٠٠ نعم انها تدرى انها تزوجته لانها لم تتوقع أن تجد غيره ولكن أيكون هذا مصيرها معه ٠٠ وتنظر الى المرأة وتزداد سخطا على محمد وعلى أبيها ، بل انها تسخط ايضا على هذا اليوم الذى عثر فيه أبوها عليها بالسيارة الواقفة بالجزيرة ٠

كانت آمال حاملا فى طفلها الأول وكان موعد وضعها قد اقترب ، ولكن محمدا لم يعبأ كثيرا بهذا فان يكن هذا القادم هو الطفل الاول لآمال فما كان الاول لمحمد فهو لايزيد حين يترك البيت عن أن يسألها فى سرعة :

ـ أتحسين ألما ؟

وتقول : لا٠

فيأخذ سمته الى السلم طريقه الى المائدة التى أصبح لايطيق العيش دونها ٠

وقد كانت فى هذا اليوم تحس الآلام ولكنها وجدت نفسها تقول لا ، فى غير مبالاة وكأنما خيل اليها انها بهذا تعاقبه على اهماله لها ٠ ونزل محمد وازدادت آلام الوضع وحاولت أن تتصل بزوجها بالتليفون ولكنها وجدته معطلا فأرسلت خادمتها الى عدلية هانم التى تقطن بالطابق الأعلى وسرعان ما نزلت عدلية ثم نادت زوجها أن يحاول الاتصال بمحمد فى النادى وان يحضر سيارة أجرة لتقلهم الى المستشفى ٠٠ وكانت السيارة الاجرة أسرع من محمد وركبت عـــدلية وآمال ووقف زوج عدلية المهندس عزت زكى على باب السيارة حائرا ماذا يفعل الى أن صاحت به زوجته :

ـ اركب يا عزت ٠٠ فلا يمكن أن نذهب الى المستشفى بلا رجل معنا ٠

وركب عزت فى حيرة لا يدرى ماذا يفعل ، وتحركت السيارة وحين جاء محمـد أخبرته الخادمة أن سيدتها سبقته الى المستشفى مع عدلية هانم وزوجها ٠

وحين وصل محمد الى المستشفى كانت آمال ما تزال تضع بينما كان عزت جالسا فى بهو المستشفى ما يزال حائرا ، وشكر محمد عزت على اهتمامه ولم يجد عزت مناصا أن ينتظر ٠ ولبس محمد ملابس الاطباء واراد أن يدخل الى زوجته ولكن قبل أن يدلف الى الباب كانت الولادة قد تمت ، وجاءت ابنته الأولى الى الحياة دون أن يكون له نصيب فى معاونة أمها ٠٠ ولم تنس آمال هذه الوحدة التى عانتها وهى تواجه الأمومة لأول مرة فى حياتها فابتدرت زوجها وهى تراه بعد الولادة مباشرة :

ـ ألم تنته البرتيتة الا الآن كتر خيرك يامحمد ٠٠ كتر خيرك يادكتور محمد ٠

وأطرق محمد ولم يحاول أن يجيب ، بل ذهب الى السرير الصغير الذى يحمل وليدته وظل يرنو اليها بنظرات فارغة فيها خزى وفيها خجل ، وان كان يحاول أن يجعل فيها شيئا من الأبوة ٠

* * *

حين عادت آمال الى البيت وجدت فى ابنتها بعض العزاء عن الوحدة ، ولـكن ما زال الليل يفترسها منتهزا فرصة وحدتها ، وتجلس الى جوار ابنتها سوسن ولكن الوحدة لاتزول مع سوسن ٠

وفى يوم كانت جالسة فى الشرفة ، ورأت عزت زكى قادما ولم تدر لماذا سارعت الى باب بيتها ففتحته وانتظرت حتى صعد عزت فوجدها واقفة بالبـــاب ، وفكر أن يحييها ويأخذ طريقه الى بيته ولكنها سارعت تقول :

ـ لم أشكرك ياعزت بك على اهتمامك بى ٠

ـ ياستى العفو انا لم أفعل الا الواجب ٠

ـ لا أنت فعلت أكثر من الواجب ٠٠ كتر خيرك ٠٠ تفضل ٠

ـ شكرا ٠

ـ تفضل اشرب شيئا ٠

ـ شكرا ٠٠ ولكنى لمحت عدلية فى الشرفة ، ولعلها تنتظرنى ٠

ـ أهكذا ٠٠

ـ مرة أخرى ان شاء الله ٠

ـ أهلا وسهلا ٠

ـ عن اذنك ٠

ـ تفضل ٠

- ٣٢ -

صلى الحاج والى الفجر حاضرا وقصد الى الأريكة فى بهو بيته وجلس الى جانب الحاجة بمبه التى كانت تعد له القهوة وصمت قليلا ثم قال :

ـ ما رأيك يا حاجة بمبه ؟

وصمتت الحاجه بمبه وراحت تهز القهوة على النار ثم سكبت بعضا منها فى فنجان وأعادتها الى النار مرة أخرى ولم تقل شيئا وأدرك الحاج والى انها لا تريد أن تجيب فقال لها :

ـ أليس أبو الولد أولى به ؟

وسكتت الحاجة بمبه مرة أخرى واستطرد الحاج والى :

ـ وهو أيضا صغير لا يتحمل الذهاب الى البندر كل يوم فى البرد الشديد ٠٠٠ وانت عارفه برد الصباح المبكر ٠

وقالت الحاجة بمبه :

ـ ألم يكن أبوه يذهب فى البرد ٠٠٠ ماذا جرى له ٠

وأطرق الحاج والى قليلا ثم قال :

ـ لم يكن لمحمد أحد فى البندر أستطيع أن أتركه عنده ٠

ـ وهل تعتقد أن أحمد له أحد الآن ؟

ـ لا حول ولا قوة الا بالله أليس أبوه هذا ؟

وقالت الحاجة فى صوت غاضب :

ـ لا ٠٠ لا ياحاج أباه ٠٠ انت أبوه وانا أمه هـل رأيتـه يسـأل عنـه ٠ ٠ انه حتى الآن لا يعلم ان كان الموعد قد جاء ليذهب الى مدرسة البندر أم لا ٠٠ لا٠٠ إنه ليس أباه ٠

ـ على مهلك يا حاجة ٠٠٠ انه يعتمد على وعليك ٠

ـ أنا لا أقول يشترى له شيئا ٠٠٠ أنا أقول يسأل ٠٠٠ اسمع يا حاج ٠٠٠ أنا لا أطمئن أن يذهب أحمد ليسكن مع محمد ٠

ـ انه أبوه ٠

ـ أعلم ولكن محمدا ليس عطوفا ٠٠ وأخشى أيضـا على الولد من امرأة أبيه ٠

وانت حين ربيت محمد ألم تكونى امرأة أبيه ؟

ـ أنا ياحاج والى أحببت ابنك بل وأحببت ابنة ضرتى ٠٠٠ انا ٠٠٠ انا ؟

ـ نعم انت خطأ فى الطبيعة ٠٠٠ انت استثناء ٠٠٠ انت لا مثيل لك يا حاجة ٠

ـ أخشى على أحمد من امرأة أبيه ٠

ـ اسمعى يا حاجة ٠٠٠ سأوفق بين رأيك ورأيى ٠٠٠ أنا سأذهب الآن الى بيت محمد وأكلم آمال دون علم زوجها وأرى ان كانت ترحب بأحمد أم لا وسأفهم من طريقة اجابتها حقيقة شعورها ونتصرف بناء على هذا ٠

ـ قد ترحب ثم تسىء الى الولد حين يقيم عندها ٠

ـ يا ستى لماذا نقدر البلاء قبل وقوعه ، وعلى كل حال اننا نستطيع دائما أن نسترد احمد ٠٠ أليس كذلك ؟

وسكتتت الحاجة وسكت الحاج وأخذ يشرب قهوته فى هدوء ٠

وقالت :

ـ هل ستأخذ أحمد معك ؟

ـ لمـاذا ؟

ـ لا لزوم ٠

ـ أبدا ٠٠٠ اننى سأسألها فقط ٠

وعاد الصمت الى الزوجين لا يقطعه الا رشفات الحاج والى للقهوة ٠

* * *

كان الوقت ضحى حين بلغ الحاج والى منزل ابنه ، وهكذا كان واثقا انه لن يجد

محمدا بالمنزل ، وصعد الحاج والى درجات السلم فى هدوء بطىء حتى بلغ الشقة التى يسكن فيها محمد ومد يده يريد أن يدق الجرس ولكنه فوجىء بزجاج الباب المصنفر يكشف له عن منظر أخذ له ...

ورأى الحاج والى شبحين يتعانقان أحدهما لرجل وآخر لامرأة شعرها مرسل على كتفيها وطالت القبلة والحاج واقف ذاهلا عن نفسه يده نصف ممتدة الى الجرس وعيناه شاخصتان الى ما يرى وفمه مفتوح من الدهشة . لماذا لم يذهب محمد الى المستشفى حتى الآن ؟ وانتهت القبلة وفتح الباب ... لم يكن محمد فى بيته . كان عزت زكى ... ولم يكن الحاج والى يعرفه ولم يكن هو يعرف الحاج والى ، وقالت آمال فى لعثمة :

ـ أهلا عم الحاج .

وظل الحاج صامتا وأدرك عزت الموقف الذى يواجهه فنظر قليلا الى الحاج ثم وثب يعدو درجات السلم فى سرعة مجنونة .

وقالت آمال :

ـ تفضل .

ودون أن يجيب الحاج والى أخذ سمته الى درجات السلم والضباب يغشى طريقه والذهول يأخذ عليه مسالك تفكيره .

ظل الحاج والى سائرا بجانب بحر مويس يغمض عينيه ويفتحها وكأنما يريد أن يمحو ما رأى فتزداد الصورة التصاقا بعينيه وذهنه وكيانه كله ... ماذا يفعل .. أيخبر ابنه .. انه اذا فعل فكأنه قتله .. فان الزوج يظل محتفظا برجولته حتى يعرف ان زوجته تعبث بشرفه .. المعرفة هى الحد الفاصل بين الشرف وعدم الشرف .. فكيف يقول لولده وحيده انه بلا شرف .. أيقول لأبيها وماذا يستطيع أبوها أن يفعل ووثب الى ذهنه فى هذه اللحظة موافقة أبيها السريعة على زواجها من محمد وهو من كان زوجا لأخرى قبلها وله منها ولد .. لا بد أن زين العابدين يعرف عن أخلاق ابنته عوجا .. ماذا يفعل أيقول له .. لا .. وجد نفسه يحنو على ابنه أن يعرف أحد حتى ولو كان أبوها ان شرف ابنه مهين مضاع .. ماذا يفعل اذن ؟ عاد أدراجه الى بيت ابنه ودق الجرس وفتحت له آمال الباب ودخل الى حجرة الجلوس ودخلت من خلفه وأغلقت الباب وظل ناظرا اليها فترة طويلة ثم قال :

ـ لماذا ؟

وصمتت وصمت حينا ثم قال :

ـ ماذا أفعل الآن ... أقول لأبيك ؟

وعاد الى ذهنها ذلك السجن الذى فرض عليها فى القرية فقالت فى سرعة :

ـ لا .

ـ اذن ماذا أفعل ... ماذا يمكن أن أفعل ... لو قلت لمحمد قتلته .

وأطرقت آمال صامتة لا تدرى ماذا تقول وعادت الى نفسها تلك الوسوس من وحدتها بالقرية فهى تقول دون وعى :

ـ لا تقل لأبى ٠

ـ وأسكت ٠٠٠ أسكت كأنى لم أر شرف ابنى يلطخ على يديك ٠٠٠ أسكت يا ست آمال ؟

وصمتت آمال لحظات ثم قالت :

ـ انها أول مرة ٠

ـ أتظنين ان هذا يهمنى كثيرا ٠٠٠ ان مجرد عزمك على هذا يكفى ٠

وساد الصمت ٠٠٠ وعاد الحاج يقول :

ـ من هو ؟

ـ المهندس الذى يسكن بالطابق الأعلى ٠

وعاد يقول وكأنه لم يسمع الاجابة :

ـ ماذا أفعل ـ ماذا أفعل ؟

وقام عن كرسيه وتركها واقفة وقصد الى الباب الخارجى وأخذ سبيله الى الطريق يمشى بجانب بحر مويس والضباب يغطى طريقه ٠٠٠ ألهذا كنت حريصا على أن يكون لى أولاد ٠٠ ألهذا نجىء بهم ٠٠ ماذا أفعل ٠٠ ماذا أفعل ؟

لم يدر لماذا أراد أن يذهب الى محمد ويراه ٠٠٠ أحس كأنه يريد أن يستوثق أنه لا يعرف عن زوجته شيئا ، أو أحس أن ابنه جريح وانه لا بد أن يكون بجانبه ، لا يدرى أى دافع خالجه وانما أحس أنه يريد أن يرى ابنه ، ووجد قدميه تقوداته الى المستشفى الأميرى التى تقع على بحر مويس ذلك النهر الذى صاحبه منذ دخل فى غمار نكبته ولم يفارقه ، ظل سائرا بجانب النهر حتى وجد نفسه أمام باب المستشفى ومع ظهور الباب طالعه سؤال لم يفكر فيه ٠٠٠ ماذا هو قائل لابنه ، أى سبب سيخلقه ليبرر هذه الزيارة ؟ ولم تطل حيرته ٠٠٠ فسرعان ما قفز أحمد الى ذهنه ٠ ودخل الى المستشفى وسرعان ما استدعى له محمد الذى قبل يد أبيه فى محاولة جادة أن يخفى دهشة من الزيارة ٠ ونظر الأب الى ابنه وهو يقبل يده وأحس نحوه حبا كبيرا ووجد يده تربت ظهره فى حنان وتشبثت يده لحظة بجاكتة محمد فقد خالجت نفسه رغبة ملحة أن يعانق ولده ثم استيقظ من خواجه ٠٠٠ فما تعود أن يعانق ابنه كلما لقيه ٠٠٠ وانفرجت أصابعه عن الجاكتة وأمسك بيد ولده وقاده الى الكرسى وجلسا ٠

ـ كنت فى البندر وخطر لى أن أراك ٠

ولم يكف هذا السبب عند محمد وأحس أن أباه ما زال يخفى سببا آخر فنظر اليه وحب الاستطلاع لا يريد أن يبارح عيناه وقال :

ـ أهلا وسهلا ... شرفت .

ـ وهناك موضوع قلت أكلمك فيه .

ـ أنا تحت أمرك ياابا .

ـ أحمد ..

وسكت الأب وسكت محمد وفكر الحاج والى ان أحمد ربما يكون رقيبا على آمال يمنعها ... وقبل ان يسترسل فى تفكيره . نظر الى محمد وكأنما خشى أن يكون قد أبصر ما يفكر فيه فقال دون ريث تفكير :

ـ انت تعلم ان موعد دخوله المدرسة الابتدائية قد حل .

ـ نعم .

ـ أخاف عليه من الصباح الباكر وبرده فأنا لا أنسى يوما مرضت انت فيه بالالتهاب الرئوى وتعلقت أنفاسنا بأبواب السماء حتى شفاك الله .

ـ أنا تحت أمرك .

ـ يخيل الى انه لو أقام معك لكان هذا أنسب له .

ـ أنا طبعا ...

وقاطعه أبوه .

ـ وطبعا أنا سأقدر زيادة التكاليف عليك .

ـ انت لا تؤخر عنى طلبا .

ـ وهل لى الا أنت يا ابنى .

وأحس سكينا حادة وهو يقول هذا وعاوده الضباب . . أترانى ظلمتك حين جئت بك الى الدنيا ولم ير محمد ما يعانيه أبوه وكان يفكر فيما يريد أن يقول وهوم الصمت على الاثنين لحظات ثم تنحنح محمد وقال :

ـ الحقيقة اننى أطمئن على احمد مع أمى الحاجة أكثر مما لو كان عندى فى البيت .

ونظر الأب مليا الى ولده وأدرك ما يريد ابنه أن يقول ثم قال :

ـ لعلك على حق ... طيب أقوم أنا .

ـ لم تشرب القهوة .

ـ وراءك شغلك ... سلام عليكم .

ـ مع السلامة ياابا .

وقبل يده وهو يسلم عليه ... وخرج الحاج والى مرة أخرى الى الطريق وبحر مويس . . لم يعد موضوع احمد يهمه فى ذاته . . وانما كان يريد أن يرى محمدا

وقد رآه ... وسار فى الطريق وعاد الضباب يغشى سبيله ولكنه نوع آخر من الضباب .. رفع الحاج والى يده الى عينه ومسح الدموع التى تراكمت على أهدابه .

- ٣٤ -

دأب الحاج والى منذ ذلك اليوم أن يزور بيت ابنه فى كل وقت من أوقات النهار . ودهش محمد لهذه الزيارات المتكاثرة ولكن آمال عرفت ما يريد الحاج والى أن يفرضه عليها من رقابة .

وكان الحاج والى يعتبر نفسه المسئول وحده عما يجرى فى بيت محمد فقد حمل السر وحده لم يبحه لأحد ولا حتى لزوجته حمل السر وحده شر حمل عرفه فى حياته الطويلة ... كان يحس به سرا أشد وطأة من الحياة نفسها ... وكان كلما ضاق بسره قصد الى الزقازيق وداهم بيت محمد . . وقليلا ما كان يجد محمدا وما كان هذا يعنيه فى شىء ، بل كان حين لا يجده يدخل الى البيت ويظل صامتا لا يتحدث وتحضر له آمال القهوة ويشربها ويظل ناظرا اليها طوال جلسته لا ينطق بل يترك عينيه تقولان وقد كانتا تقولان كثيرا وكانت آمال تستمع الى هذا الحديث الصامت فينصب على قلبها كأنه المدى القاطعة . وتحاول ألا تنظر الى الحاج ولكن عينيه الهادرتين بالحديث ما تلبثان أن تفرضا عليها أن تنظر اليهما لترى وتسمع الحديث الصامت وتواصل المدى عملها فى قلبها بل فى كيانها جميعا .

* * *

ويشرب الحاج والى قهوته ويطلق تنهيدة ينتزعها من أعماق آلامه ويقوم الى الباب لا يسلم . فاذا أقفلت آمال الباب من خلفه تهاوت فى بكاء صاخب ثائر ثورة لا تدرى كيف تنفس عنها .

وفى يوم بينما الحاج والى جالس معها وعيناه مثبتتان عليها قالت له فجأة :

ـ عم الحاج .

ولم يجب فواصلت الحديث .

ـ أتستطيع أن تقتلنى ؟

ولم يجب فواصلت الحديث .

ـ كنت قد هددتنى أن تقول لأبى ورجوتك ألا تفعل ... أتراك اذا قلت له تكف عن هذه النظرات ... قل له ... قل له .. فقط كف عن هذه النظرات .

ـ وانخرطت فى البكاء ولم يقل الحاج والى شيئا وانما قام وانصرف شأنه دائما .

وفى يوم عرض عليها محمد أن يسافرا الى القاهرة وكأنما أنبتت كلمة القاهرة فكرة فى نفسها لم تكن تخطر لها ...

وفى القطار قالت لمحمد :

ـ انت الآن دكتور معروف فى الزقازيق يا محمد ٠
وأحس محمد الزهو وهو يقول :
ـ الحمد لله ٠
ـ صاحبتى ناهد قالت لى انها تعرف زبائن من مصر جاءوا اليك فى الزقازيق لتعالجهم ٠
ـ صحيح ؟
ـ ألم تكن تعرف ؟
ـ أنا لا أسأل الزبائن من أين جاءوا ٠
ـ ناهد قالت لى هذا ٠٠٠ وقد ذكرت لى أسماءهم ولكنى نسيتها ٠
ـ اذن فزوجك رجل مهم ٠
ـ انت طيب ، محمد ليس فيك الا عيب واحد ٠
ـ أعرفه ٠٠٠ انه يسـلينى يا آمال ٠٠٠ يجعلنى أنسى كل ما الاقيـه أثناء النهـار ٠٠
ـ يا ترى يا محمد لو انتقلنا الى مصر ٠
ـ ماذا ؟
ـ ان اسمك كبير الآن ٠٠٠ ستجد زبائن أكثر من زبائن الزقازيق وقـد تجد تسلية أخرى ٠
ـ أما الزبائن فلا أعلم ٠٠٠ مصر واسعة وأخشى أن أضيع فيها وسط الزحام ، أما التسلية الأخرى فأشك كثيرا أن أجد شيئا يسلينى عن الورق يا آمال ٠
ـ نجرب ٠
ـ ألا تخشين أن تكلفنا التجربة زبائن الزقازيق ولا تعوضنا بزبائن مصر ٠
نحن والحمد لله لا نحتاج للمال انت وحيد أبيك وأنا وحيدة أبى ومرتبك يكفينا ٠٠ فما الضرر أن تجرب ٠
ـ على شرط ٠٠
ـ قل شروطك كلها ٠
ـ أن تفقدى الأمل فى أن أترك لعب الورق ٠
ـ لا بأس ٠٠٠ يكفى أن أكون فى القاهرة وأتنفس ٠
وأطلقت تنهيدة عميقة واحست انها أخيرا تستطيع فعلا أن تتنفس ٠

- ٣٥ -

حين أبلغ محمد أباه انه نقل الى القاهرة صمت الأب طويلا حتى اضطر محمد آخر الأمر أن يقول :

ـ ماذا يا أبا ... أيغضبك هذا ؟

وظل الحاج والى صامتا فترة أخرى ثم قال فجأة وقد عاوده شعور بالخوف أن يرى ابنه الأفكار التى تدور برأسه .

ـ وما الداعى لهذا النقل ؟

ـ المجال هناك أوسع .

ـ هنا يعرفك الناس .

ـ وسيعرفنى الناس هناك .

ولم يكن الحاج والى يحتاج الى كثير تفكير ليدرك أن آمال هى التى ألحت لاتمام هذا النقل ولكنه لم يستطع أن يقول شيئا الا ...

ـ مصر واسعة يا محمد .

ـ والناس فيها كثيرون .

ـ أخشى أن تضيع هناك بين الأطباء بعد أن أصبحت هنا معروفا .

ـ ألا تثق فى ياأبا .

وصمت الحاج والى قليلا ثم قال :

ـ بل انى أثق فيك كل الثقة .

وعاد الى الصمت وهوم السكون عليهما لحظات ثم قال :

ـ يا محمد خذ بالك من ...

ولم يكمل .

وقال محمد :

ـ ممن يا أبى ؟

وتنهد الأب ثم قال :

ـ من صحتك يا ابنى .

وفهم محمد ما يقصد أبوه أو خيل اليه انه فهم فأطرق فى استخذاء فقال الأب :

ـ انك تسهر كثيرا ولا تراعى ...

وصمت محمد وأكمل بعد تنهيدة عميقة :

ـ صحتك .

وعاد الصمت مرة أخرى يحلق على الأب وابنه ثم قال الحاج والى :

ـ انك تحتاج لفلوس للنقل ولانشاء عيادة .

وسكت محمد وقال الأب :

ـ خذ ... معى الآن مائة جنيه وان احتجت لزيادة ارسل لى .

ـ أطال الله عمرك يا أبا ...

وانصرف محمد وظل الأب وحيدا وحين قدمت اليه الحاجة بمبه وجدته ساهما مفكرا ولم تحاول أن تسأله عما به ، بل تركت الغرفة وعاد هو الى وحدته وان كان لم يفارقها ... لماذا تفعلين هذا بنا يا آمال ... لماذا تفعلين هذا بنا ... ؟

* * *

سرعان ما استعاد محمد صلاته بأصدقاء الكلية فقد كان يتصل بهم كلما جاء الى القاهرة فحين نقل اليها كان على علم بمكان أصدقائه جميعا . وفى مقدمتهم مجدى عبد العزيز الذى أصبح طبيبا بمستشفى الملك حيث نقل محمد وهكذا التأم الصديقان مرة أخرى تجمع بينهما الذكريات القديمة والزمالة فى المستشفى .

وما أن استقر المقام بمحمد وآمال وسوسن فى القاهرة حتى أخذ محمد يبحث عن طلبتين . الطلبة الأولى رفقة يشاركونه اللعب والطلبة الثانية شقة تصلح عيادة له . وقد حقق له مجدى الطلبتين كلتيهما . فان يكن مجدى غير هاو للعب القمار الا انه يجلس مع اللاعبين كل ليلة فى نادى القاهرة قانعا بالمشاهدة عن الاشتراك فى اللعب وسرعان ما انضم محمد الى هؤلاء اللاعبين واثقا أن ليس بينهم نصاب يغش فى اللعب .

كما استطاع مجدى بما له من صلات ممتدة فى القاهرة أن يعثر لمحمد على شقة مناسبة فى ميدان الأزهار لتكون عيادة له .

أما آمال فانها قبل أن يستقر بها المقام فى القاهرة كلمت صديقتها ناهد وما أسرع ما تم بينهما اللقاء .

ـ أخيرا يا آمال ... أخيرا عدت الى مصر .

ـ انت لا تعرفين كم كنت أشتاق الى مصر واليك .

ـ حدثينى عن أيامك فى الزقازيق .

ـ أيام سوداء ... لا أراك الله مثلها .

سأعوضك عنها أياما بيضاء مشرقة .

ـ أحتاج الى سنين طويلة لأعوض ما شفته من عذاب .

ـ هل كان لك أصدقاء فى الزقازيق ؟

ـ زوجات من الموظفين .

ـ لا ، أنا أقصد أصدقاء لا صديقات .

ـ اسكتى .

ـ وراء اسكتى حكاية .

وقصت آمال قصتها مع صديقها الوحيد عزت وما فعله معها الحاج والى . وحين انتهت قالت ناهد :

ـ عبيطة ٠

ـ وماذا كنت أفعل ؟

ـ لماذا يكون هذا فى بيتك ؟

ـ وأين يمكن أن يكون ؟

ـ انت عبيطة ٠

ـ هل لك أصدقاء ؟

ـ عدد شعر رأسى ٠

ـ وزوجك ؟

ـ يسهر فى الخارج وأسهر فى الخارج ٠٠٠ ألا يسهر زوجك ؟

ـ يسهر ٠

ـ سأعوضك عن أيام الزقازيق ٠

ـ سنرى ٠

- ٣٦ -

ذهب محمد الى نادى القاهرة فى الساعة التاسعة وكان مجدى هناك وتناولا العشاء معا وقاما ينتظران اللاعبين فى حجرة اللعب وجاء أحد اللاعبين وقال لمحمد :

ـ يظهر انه لا يمكن عمل برتيتة الليلة ٠

ـ لماذا ؟

ـ يسرى وحمدى سافرا يعزيان زميلا لهما فى المنصورة وقال مجدى لمحمد :

ـ تأخذ أجازة ليلة ٠

وقال محمد فى ضيق :

وماذا نفعل ؟

وقال مجدى فجأة :

ـ عندى فكرة ٠٠٠ ألا تحب أن ترى بعض الذكريات ٠

ـ الحقيقة يا مجدى ألا شىء عندى يسلينى مثل اللعب ٠

ـ بل عندى أنا ما يسليك أكثر من اللعب ٠

ـ يا شيخ ٠٠

ـ اسمع كلامى ٠

ـ ماذا ؟

ـ أتعرف عزيزة ؟

ـ الله يرحم أيامها ٠

ـ انها الآن فى عزها ٠

ـ ماذا ؟

ـ لها بيت يجتمع فيه السيدات من الطبقة الراقية ليلتقوا بآخرين ٠٠٠ الليلة هناك ليلة من ألف ليلة ٠٠٠ مرح وضحك وسرور ٠٠٠ لو ذهبت مرة نسيت القمار الى الأبد ٠

ـ يا عم أنا متزوج وليس لى فى النسوان ٠

ـ وأنا أيضا متزوج ٠٠٠ اننا سنجلس فقط نضحك ونلهو ثم نروح ٠

ـ وماذا تستفيد منا اذا كنا لن ندفع شيئا ؟

ـ ليس من الضرورى أن يدفع جميع من يذهب اليها ... فان القلة التى تدفع تعوضها عن جميع الآخرين ... هيه ماذا قلت ؟

ـ ما ترى .

وفى غير حماسة رافق محمد صديقه مجدى الى بيت عزيزة ... وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة بقليل حين دق مجدى جرس البيت وفتح الباب عن ضجيج صاخب ودخل مجدى وهو يجر محمدا جرا ..

وحين بلغا أول الردهة رأيا مصادر الضجيج نساء عاريات الصدر يطلقن الضحكات المعربدة وقد التفت حول صدورهن أيدى رجال تراوحت أعمارهم بين الشباب والكهولة والشيخوخة . وقال مجدى لصديقه :

ـ انتظر لحظة حتى أنادى عزيزة .

وتركه وحيدا ودلف داخل الشقة ولم يجد محمد ما يفعله الا أن يطالع الوجوه فراح يمر بها . وفجأة تسمرت عيناه على زوجته آمال بين يدى رجل من هؤلاء ... لم يصدق .. وتفرس .. انها هى .. وقد رأته وانتفضت من بين ذراع رفيقها وأرادت أن تفعل شيئا ، لم تكن تدرى ماتريد أن تفعل ولا درى هو وانما فى لحظة حزم أمره على شىء واندفع نحو باب الخروج لاهثا ... وخرج الى الطريق ... أيقتلها .. زوجة داعرة وزوج قاتل وتحل الجناية على سوسن واحمد ... حبيبى أحمد ... ماذا يفعل ... وجد نفسه يركب سيارة أجرة ويأمر السائق أن ينطلق الى المنيرة .. ماذا يفعل فى البيت ... نزل من السيارة وطرق باب البواب وخرج اليه البواب نصف نائم ... وسأله محمد :

ـ أتعرف مكان المأذون هنا ؟

وقال البواب :

ـ نعم .

وقال محمد فى حزم :

ـ تعالى معى .

وطرق باب المأذون طرقا ملحا حتى فتح ودخل محمد والبواب وسائق السيارة الأجرة . وبعد دقائق كانت آمال طالقا .

وعاد محمد الى البيت وفتح الباب وجد « آمال » بالبهو وقامت تجرى اليه .

ـ محمد ..

ـ أنت طالق وهذه ورقتك .

ورمى الورقة على الأرض وأمسكت آمال يده .

ـ أرجوك . أبوس يدك .

ونتر محمد يدها وجرى الى السلم · ووجد سائق السيارة الأجرة ما زال واقفا فسأله :

ـ أتذهب الى الزقازيق ؟

ـ الآن ؟

ـ نعم ·

ـ أذهب ·

وفى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى كان محمد يطرق باب أبيه وفتحت الحاجة بمبه الباب وارتاعت حين رأت محمدا زائغ النظرات حائرا ملتاعا ودخل محمد ·

ـ أين أبى ؟

وقال الحاج والى وهو يقف على باب حجرته :

ـ أهلا محمد ·· خير يا ابنى ؟ ·

ـ أبا ··· أبا

واقترب الحاج والى من ابنه واحتضنه بذراعه اليمين وسار به الى الأريكة وجلسا ·

ـ مالك يا محمد ؟

وانفجر محمد ·

ـ طلقتها يا ابا ··· طلقتها ··· طلقتها ·

وأطرق الحاج والى قليلا وراح الضباب يتصاعد أمام عينيه ولم يجد شيئا يقوله الا :

ـ خيرا ان شاء الله ··· خيرا ان شاء الله ·

* * *

لم ينم محمد ليلته وانما راح يتقلب فى فراشه حتى آذن الفجر بشروق وقام الى البهو وجلس به وحيدا فلم تطل وحدته فقد قام أبوه الى صلاة الفجر ··· وانتظر محمد حتى ختم أبوه الصلاة فقال له :

ـ أبا ··· أريد أحمد معى ·

ـ انت تسهر فى الخارج واحمد سيكون وحده ولن تراقبه ·

ـ أريد أحمد معى يا ابا ولن أسهر ··· سأعيش له يا أبا ·

ـ ماشئت يا بنى ··· ما شئت ·

وصحب الحاج والى ابنه وحفيده الى القطار فركباه وحين عاد وحيدا الى طريق القرية لم يتصاعد الضباب أمام عينيه ··· أحس كأن الضباب قد ركب القطار مع ولده وحفيده ·· لقد آن لمحمد أن يحمل العبء الذى حملت ·· وتدور الحياة ·